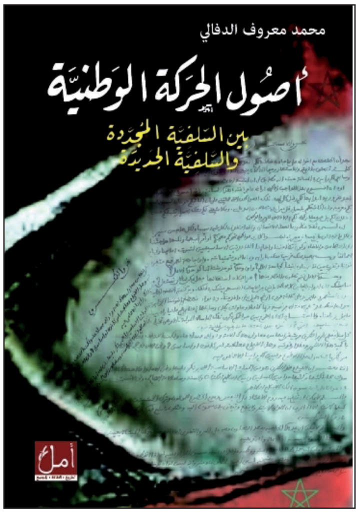

Mohamed maʿrūf ad-dafālī.- *'Uṣūl al-ḥarakāt al-waṭaniyya bayna as-salafiyya al-mujaddida wa assalafiyya al-jadīda* (al-Dār al-bayḍā': manshūrāt 'amal, 2014), 223p.

محمد معروف الدفالي.- أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة (الدار البيضاء: منشورات أمل، 2014)، 223 ص.

يعد البحث في تاريخ الحركة الوطنية المغربية من بين المواضيع التي لم تستقطب بما يكفي اهتمام المؤرخين، بحكم النقص الحاصل في وثائق المرحلة وصعوبة الوصول إليها، فضلا عن إكراهات شتى يطرحها البحث في تاريخ قريب لا يزال يلقي بثقله على ذاكرتنا الجماعية. ويعتبر المؤرخ محمد معروف الدفالي من الباحثين الأكفاء ممن خاضوا تجربة البحث في هذا الموضوع، ويشكل عمله الأخير بعنوان: **أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة**، الصادر عن منشورات **مجلة أمل** سنة 2014م، محاولة جادة في الاستقصاء والتركيب لجزء من تاريخ الحركة الوطنية بين سنتي 1912م و1930م، من خلال رصد حيثيات وملابسات المرحلة التي هيأت لتبلور الفكرة الوطنية والشروط المساهمة في تطورها لتصبح حركة منظمة.

وينطلق الباحث في دراسته من إشكالية مركزية تقوم على مساءلة الكتابات التي تقدم تاريخ موقف نخبة المدن من الاستعمار في الفترة المدروسة، في شكل صورة سلبية تقوم على الاستسلام والتواطؤ، مقابل صورة نخبة البادية التي رفضت الاستسلام وقادت المقاومة المسلحة. وقد نتج عن ذلك أن اكتنف تاريخ الحركة الوطنية كثير من الغموض والأسئلة المعلقة، مما جعل الباحث يغوص لسنوات طويلة في استكناه الإشكالات المحيطة بأصول هذه الحركة.

واستمر التصنيف المبني على الثنائيات يتكرر في كثير من الكتابات، سواء في ذلك كتابات المؤلفين المعاصرين لمرحلة الحماية، أو كتابات بعض الباحثين الجامعيين. واصطبغ أحيانا بنوع من المفاضلة والانتصار للبادية على حساب المدينة، من خلال ثنائية المقاومة والاستسلام، بما تتضمنه من شحنة تحيل على ثنائية تكاد تكون ملغومة الأبعاد وهي ثنائية "الخيانة" و"الوطنية." والحقيقة أن مثل هذه الخلاصات تفتقر إلى الموضوعية، لأنه وبتزامن مع حركة المقاومة المسلحة بالبادية، تكونت حركة سلمية مقاومة في الحواضر الكبرى بمبادرة نخبة اهتدت إلى نوع من هامش المناورة الذي يساهم في خلق فرص للاستفادة من النظام الجديد. غير أن موقف الحضريين لم يكن واحدا، بل تعدد وتباين، واختلف باختلاف المصالح والرؤى. وبالاستناد

Journal Indexed in Emerging Sources Citation Index (Web of Science)
Covered in *Clarivate Analytics* products and services, ISSN: 0018-1005

إلى مجموعة من الإشارات المنبثة عبر عديد من الكتابات والشهادات، استطاع الكاتب أن يميز بين ثلاثة أنواع من ردود فعل النخبة الحضرية تجاه واقعة الحماية، لخصها في موقف الرفض، وموقف الترحيب، وموقف القبول المشروط.

وتباينت أساليب تصريف موقف الرافضين لمعاهدة الحماية، وإن اتفقوا في المبدأ العام، فكان خيار المواجهة المباشرة الذي تُجسِّد "ثورة فاس" أفضل نموذج له، أول أشكال التعبير عن هذا الموقف، غير أن هذا الحدث أثبت مدى العنف الذي يمكن أن يلجأ إليه المستعمر للانتقام إذا ما تعرض وجوده للخطر. ولذلك فضل أغلب الرافضين لنظام الحماية المقاومة السلبية عبر مقاطعة المستعمر ورفض مخالطته، واعتبر كثير من العلماء مساكنة الكفار مصيبة عظمى، ودعوا القادرين على الهجرة إلى المغادرة، لأنه يحرم الإقامة مع المشركين ومساكنتهم والخضوع لأحكامهم. وفي سياق المواقف الأقل تشددا، رأى بعض الفقهاء أنه في إمكان العاجز عن مواجهة الكافر، دون القدرة أيضا على الهجرة أن يقيم ببلده شريطة الجلوس في بيته وأن لا يخالط النصارى.

وفي الجهة المقابلة لهذا الموقف تشير عديد من الكتابات إلى أن جزءا من النخبة الحضرية، وخصوصا وجهاء المدن، وبعض رجال المخزن، والمحميون، وبعض شيوخ الطرقية، وغيرهم ممن كانت لهم مصالح حقيقية أو وهمية مع المستعمر رحبوا بالحماية، واستقبلوها باحتفاء، بل من هؤلاء من أسهم في تعبيد طريق الاحتلال واجتهد في تبريره.

وبين هذين الموقفين، تميز موقف معتدل عقلاني، لم يناصب الحماية العداء ولم يرحب بها مجانيا، كما لم ير في المواجهة نتيجة نظرا لاختلال الشروط، فوقف على نفس المسافة بين الاحتلال والممانعة. وارتكز أصحاب هذا الموقف على مبدأي الحفاظ على الأمن والتدرج في الإصلاح، فقد رأى هؤلاء في نظام الحماية عدوا ما من صداقته بد، وسالموه من باب اعتباره عنصرا قد يساعد على تحقيق بعض الإصلاحات. وقد مثلت هذه النخبة أصول الحركة الوطنية التي انطلقت في شكلها التنظيمي والعلني سنة 1930م. ولم تكن هذه النخبة منسجمة من حيث مقاصدها وأهدافها وأساليب عملها، وإن اشتركت في نفس المنطلقات التي قامت على ضرورة إحياء أمجاد السلف مع الانفتاح على العصر واقتباس كل ما يساعد على النهوض والارتقاء. لقد استندت هذه النخبة في صياغة رؤاها إلى مفهومين أساسين هما: "الانحطاط" و"التمدن،" ولم تربط انحطاط العالم الإسلامي بالتراجع عن الإسلام المعياري فقط، وإنما أضافت إلى ذلك أسبابا دنيوية على رأسها إهمال العلم والمعرفة، فقام مشروعهم على إحياء الإسلام الصحيح، والاستفادة مما وصل إليه الغرب من معارف جديدة وتقنيات. وبهذا الجمع كانوا سلفيين وتوفيقيين.

ويميز الباحث الدفالي ضمن هذه النخبة بين تيارين اثنين، أحدهما مثَّله الجيل الذي عاصر أزمة المغرب قبيل الحماية، ومثل الثاني الجيل الذي ولد مع بداية الحماية، والمعروف أصحابه في بعض الأدبيات باسم "جيل حرب الريف." واستنادا إلى اجتهادات كل تيار في إطار الخط السلفي، وإلى طريقة العمل، نعت المؤلف الجيل الأول بـ "السلفية المجددة،" في حين وسم الجيل الثاني بـــ "السلفية الجديدة."

وظف تيار "السلفية المجددة" مقولة "التجديد" من أجل تهيئ المغاربة لمسايرة العصر وتقدير دور العقل. واستعان بعدة وسائل نظرية من قبيل إعمال العقل والاجتهاد والفكر المقاصدي. ومن أبرز رموز هذا التيار، أحمد بن المواز ومحمد الحجوي ومحمد السليماني وأحمد النميشي وأحمد الصبيحي وآخرين من نخبة كانت قليلة العدد، ولم تشكل "حركة" ولا "جماعة" خاصة، وإنما كانت تصوراتهم الإصلاحية فردية.

وشكل مبدأ "الترقي" في خطاب هؤلاء مقصدا كليا، وغاية مستهدفة لتحقيق مصلحة البلاد والعباد، فتحدثوا عنه بمعنى الصعود والتقدم والتمدن، وتجاوز الحاضر الذي وصفوه بالتأخر والجمود. أما أسباب الترقي، فتكمن عندهم في الانفتاح على الوسائل نفسها كما نهجها الغرب لتحديث مجتمعاته وتجديدها، وذلك لا يتحقق إلا "بالاستعداد" والبحث عن عناصر القوة التي مكنت الآخر من التفوق.

ويستدعي إدراك "الترقي" وبلوغ "الاستعداد" شروطا ومقتضيات لا بد من توفرها، ويتعلق الأمر بمقتضيات ذاتية تتمثل في القدرة على التجديد الديني عبر فتح باب الاجتهاد ومراعاة المصلحة، فضلا عن مقتضيات موضوعية تتمثل في تسويغ مدنية الغرب. ولتحقيق ذلك، تعيَّن التدليل على عدم التعارض بين الشريعة والمدنية، بل اعتبار هذه الأخيرة شقيقة الشريعة ورضيعتها. وفي هذا السياق، مثلا، حسم الحجوي بأن "أوربا لم تبق دار حرب،" وذهب به ذلك إلى تعميق الانفتاح على الغرب وتوطيد أسباب الاتصال مع العالم المتقدم، ولو كان الأمر عن طريق الحماية ذاتها. ولم يكن الحجوي منفردا في ما ذهب إليه، بل إن تصور رموز هذا التيار قد تبلور بدرجة وصلت حد ضرورة التعاون مع الحماية، وتحويلها إلى تناقض ثانوي أمام التأخر والجهل كتناقض أساسي.

ويُناقش المؤلف، بكثير من التفصيل آراء هذا التيار ومواقفه، مستندا إلى أدبيات رموزه. ويلاحظ أن هؤلاء سعوا في مشروعهم الإصلاحي إلى تسويغ الحماية انطلاقا من نقد الذات وتشريح واقع المجتمع المغربي وكشف مساوئه قبيل الحماية، حيث تم تصويره مجتمعا مهترئا، تـخترقه الأمراض والعلل، وتمزقه الفوضى، والنتيجة، كما كتب النميشي، "أن الحماية كانت دواء ناجعا لتلك الأدواء التي نخرت عظم هيكل المغرب." ومع أن كثيرا من عناصر هذه الصورة صحيحا، فإن المؤلف ينبهنا إلى أن انجرار هذا النقد إلى نوع من المبالغة في نقد الذات

وجلدها رافقه نوع من غض الطرف عن ممارسات الآخر. وتحول نقد المجتمع المغربي إلى نوع من إظهار العيوب المسؤولة عن التردي بأسلوب أظهر تلك العيوب مبررات لواقع الحماية ونظامها الذي تم اعتباره أفضل من النظام السابق عليه.

وكان القبول بالحماية، بالنسبة لهؤلاء، ضرورة فرضها الواقع للحفاظ على الوجود وتجنب الهاوية. وارتبط هذا التسويغ بنوع من الأمل والثقة في هذا النظام ورجاله لتجاوز واقع التأخر. لقد كان خطاب هذا التيار واقعيا وعقلانيا، إذ لم يؤمن أصحابه بالمواجهة، لاقتناعهم بانعدام المماثلة في القوة. وبالمقابل طرحوا مشروعا إصلاحيا يصحح مختلف أبعاد الاعوجاج ويبني بديلا في أفق الترقي. ويراعي هذا المشروع مختلف أبعاد الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية.

لقد أعاد السلفيون المجددون قراءة نصوص الشريعة قراءة تساير العصر، ودعوا إلى ضرورة "الاستعداد" انطلاقا من الدعوة إلى تجديد الاقتصاد، من خلال التزام القصد بمعنى التوسط والبعد عن الإسراف، وكذلك تجنيد القوة العاملة ورأس المال من أجل تنمية ثروة البلاد فلاحيا وصناعيا وتجاريا. ويرتبط بذلك تجديد المجتمع عبر الدعوة إلى الالتزام بالقيم والبعد عن البدع والانحرافات السلوكية، والتزام النظام. أما المجال الثالث في هذا المشروع التجديدي، فيحيل إلى تجديد الوعي السياسي من خلال نقد الاستبداد واعتباره خصما قويا لكل محاولة إصلاحية، ولذلك حَمَّلوه مآل العالم الإسلامي. وقبل كل ذلك وبعده، ركز هؤلاء على أهمية العلم والتعليم، باعتباره الإكسير الذي ينفخ الروح في الأمم. ولا تكاد تجد أحدا من هؤلاء لم يكتب أو يحاضر في مجال التعليم.

وكانت الأطروحة المركزية في هذا التصور هي "الترقي" القائم على نظرية الاستعداد والطموح لإعادة بناء المجتمع على أسس متينة تهيئ شروط استرجاع ما ضاع من استقلال، وهو ما عكس شعورا وطنيا واضحا. وارتبط تفكير هؤلاء بمرجعية الفكر السلفي، كما تطلع إلى الاستبصار بالأفكار الأوربية الحديثة. ولهذا انطبقت عليهم صفة "السلفية المجددة،" إذ لم يرفض هؤلاء الحضارة الغربية وفقا لما جاءت عليه مع الاستعمار رفضا مطلقا، كما لم يقبلوا بها قبولا مطلقا، وإنما اتخذوا منها موقفا معتدلا نادى بالاقتباس عنها مع مراعاة الحفاظ على مقومات التراث الإسلامي. ولعل إقدام رموز هذه النخبة على العمل بطريقة فردية، وكذا إيمانهم بالتدرج، قد حال دون انتقال جهودهم إلى مستوى تعبئة المجتمع وتنظيم أفراده.

وخلافا لهذا الأمر، عبَّر جيل تلامذة دعاة "السلفية المجددة" عن سعي حثيث للانتقال بالشعور الوطني من مستوى "الانفعال" إلى حركية "الفعل." وشكل حدث استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي منعطفا أساسيا في هذا الاتجاه، فكان في طليعة هذا التحول جماعة من الشباب ممن أطلقت عليهم إدارة الشؤون الأهلية، فيما بعد نعت "السلفية الجديدة." واختلفت

مبادرة هؤلاء وتصورهم الإصلاحي عن نهج "السلفية المجددة" في نقاط شتى، أهمها تشدد السلفيين الجدد إزاء حركة التصوف الطرقي وإعلان الحرب عليها، وإظهارهم شغفا بتأسيس الجمعيات السرية وإصدار الصحف الخطية وتوقيع العرائض المطلبية.

وإذا كان تيار السلفية المجددة قد أخذ في تصوره الإصلاحي قوة الاستعمار بعين الاعتبار، واستند إلى نوع من حسن النية إزاء نوايا المستعمرين، وسلك نوعا من النزعة الانتظارية المؤمنة بالبعد المعياري لنظام الحماية، واهتمت بالدعوة إلى إصلاح الذات في أفق تحقيق مستقبل أفضل مهما كان بعيدا، فإن المشروع السلفي الجديد، وخلافا لذلك، قد رمى بتأكيده على الإيديولوجية الوطنية وعلى الإحياء الديني ومحاربة ما سماه بالبدع والخرافات، ودعا إلى تحويل السلفية من مجرد دعوة تجديدية إلى نوع من الإيديولوجية الموجهة للعمل الوطني.

ومزجت "السلفية الجديدة" بين الحميَّة الدينية والحميَّة الوطنية، فكان هذا هو الدرس الأول المستقى من حركة الخطابي، حيث ارتبطت الوطنية بالدين وتداخلت معه لدى الحركتين السلفيتين، غير أنها ظلت في خطاب التيار الأول جزءا من الدين، بينما يظهر أن تراجع أفكار الجامعة الإسلامية جعل التيار الثاني يؤمن بنوع من الجدلية القائمة بين الدين والوطنية أحيانا، ويجعل الدين أحد مقومات الوطنية وبعدا من أبعادها. أما الدرس الثاني، فيتمحور حول معاداة الطرقية كرمز للجمود والتقليد، وقد أجج موقف بعض الطرق المعادي للثورة الريفية عداء شباب السلفية الجديدة، حيث وضعوها في مصاف الاستعمار.

ويَعتبر الباحث معروف الدفالي كتاب **إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة** لمحمد المكي الناصري، بمثابة "بيان" لحركة السلفية الجديدة، إذ حدث التفاف مثير حول هذا الكتاب، وتم الإعلان من خلاله عن هذه الحركة وهويتها السلفية، فضلا عن تحديده لإديولوجيتها والخطوط العريضة لأهدافها وطموحاتها. وفي سياق النقاش الفكري الحاد الذي أثاره صدور هذا الكتاب، دشنت "السلفية الجديدة" خصومة فكرية وسياسية مع شيوخ الفكر الطرقي. وأطلق "السلفيون الجدد" على أنفسهم اسم "أنصار الحقيقة،" بينما اعتبروا خصومهم "معسكر المحافظة والجمود." وفي هذا الإطار لم تخرج الصورة التي وضعها السلفيون الجدد للمجتمع المغربي عن صورة أنصار الفكر السلفي المتجدد، الناطقة بالانحدار من القمة إلى السفح، وتم ربط ذلك الانحدار والتراجع بالتفريط في الدين وتحريفه عن مقصده الحقيقي.

واعتبرت السلفية الجديدة نفسها حركة إصلاحية، حددت ضمن مبادئها وغايتها هدفا مسعاه إصلاح الأمة. وحددت التناقض الرئيسي لأهدافها في ثلاثة خصوم يتجسدون في الجهل والاستعمار وزعماء الطرق، فأعطت الأولوية لمناهضة الطرقية في هذه المواجهة. حيث ربط السلفيون الجدد بين إدراك الرقي ومواجهة الطرقية المنهمكة في تسخير نفوذها الواسع داخل المجتمع المغربي بالتعاون مع فرنسا ونشر فكر التخاذل والتراجع عن مقاومتها. ومثلما

وظف السلفيون الجدد الدين مدخلا لمهاجمة الطرقية، فقد وظفوا مهاجمة الطرقية مدخلا لمهاجمة الحماية. واستطاعوا فرز قيادات وطنية وسياسية ظهرت بقوة على المسرح السياسي بعد أحداث 1930م، فتشكلت إثرها نواة صلبة أعلنت عن ميلاد الحركة الوطنية.

ومما لا يدع أدنى مجال للشك، فإن الكتاب موضوع هذا العرض يتسم بثرائه الواضح على كثير من المستويات، إذ تمكن صاحبه محمد معروف الدفالي، برصانته المعهودة، من توظيف عدد كبير من النصوص والمتون، باقتدار كبير، ومهارة مشهودة، في تحليل الخطاب السلفي سواء من حيث مرجعياته، أو مقاصده أو المواضيع التي شدت اهتمامه. وقادته تحليلاته إلى مجموعة من الخلاصات تدعونا إلى إعادة النظر في المقاربات المعتمدة لدراسة تاريخ الفكر المغربي في مرحلة الحماية، وهي مقاربات لا تزال تتخذ من ثنائية "الوطنية" و"الخيانة" المدخل الأساسي لمعالجة هذا التراث الفكري الذي لم يكن أصحابه معنيون بهذه الثنائية بقدر اعتنائهم بمداخل التغيير والإصلاح لتحقيق الرقي والنهضة. وقد أبانت "السلفية المجددة" على درجة من الانفتاح إزاء التحديث والحداثة، وصاغت نوعا من "الوطنية الاجتماعية" على نحو حاولت التوفيق فيه بين الفكر السلفي ومنجزات الحضارة الغربية، واتسمت مواقف بعض رموز هذا التيار بتوجهها الليبرالي الواضح. وهذا في حين، بدت "السلفية الجديدة" أقل انفتاحا على أسباب الرقي وأكثر تشبثا بالهوية، مما دفع تصورها الإصلاحي في اتجاه نوع من "الوطنية السياسية" التي أدركت أن مخاطبة الوجدان في المجتمع المغربي أكثر فاعلية من مخاطبة العقل والفكر. وكانت أكثر قدرة على التعبئة على العمل الجماعي والحركة، حيث استطاع رموزها أن يجمعوا حولهم الأنصار بسرعة، وأن يكونوا الجمعيات السرية، ويصدروا الصحافة الخطية، منتقلين بالفعل الوطني من حالة السكون في اتجاه حالة الحركة.

محمد بكور
باحث في التاريخ، طنجة